الباب الأول

بدايات الفكر الأوروبى الحديث

** الفصل الأول: عصر النهضة الأوروبية

** الفصل الثانى: حركة الإصلاح الدينى

** الفصل الثالث: نشأة العلم الحديث

الفصل الأول

عصر النهضة الأوروبية

- تمهـــيد
- ماذا يمثل عصر النهضة ؟
- النهضة فى إيطاليا (ليوناردو دافنشى ـ نيقولا ماكيافللى).
- النهضة خارج إيطاليا (توماس مور).
- خلاصة النزعة الإنسانية (جيوردانو برونو).

تمهيد

حين بدأت نظرة العصور الوسطى إلى العالم فى الاختفاء خلال القرن الرابع عشر، أخذت تظهر بالتدريج قوى جديدة عملت على تشكيل العالم الحديث [1].

فقد بنت أوروبا تدريجياً أسس حياة ثقافية خاصة بها، وذلك عندما تقدمت الحياة الزراعية، وأصبحت تنتج فائضاً من المحاصيل رافق تصريفه طلب منتجات البلاد الأخرى، فنشأت بلدان ذات أسواق تجارية لتبادل السلع المحلية وتصريف البضائع الواردة من الشرق. وبقيام المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان وازدياد أوقات الفراغ، واتساع أنواع الاهتمام ؛ تولد حب استطلاع عقلى، كان من مظاهره فحص الاعتقادات القائمة والتطلع إلى معارف أخرى [2].

كما أن تحول الكنيسة عن صيغتها المحلية الغالبة فى القرون الوسطى إلى نظام البابوية الشامل بمؤسساته الجديدة المتعددة، هيأ للأفراد متسعاً من الوقت لإرضاء فضولهم الفكرى؛ وقد أدى هذا بدوره إلى زيادة المهتمين بالحياة الفكرية وخلق – بصورة غير مباشرة – تربة خصبة للاتجاهات الجديدة فى الفكر، فشهد القرن الثالث عشر نشوء جمهور علمانى ذى اهتمام بالأدب والعلم [3].

ثم إن الحروب الصليبية – وهى أولى مغامرات أوروبا للتوسع – أتاحت للكثيرين من أبنائها فرص للاحتكاك بالثقافة العربية الإسلامية التى كانت تفوق الثقافة الأوروبية بمراحل كثيرة ؛ كما أن غزو القسطنطينية عام 1204 فتح المجال للإطلاع على ثقافة اليونان. وبالرغم مما لهذه الأحداث من أهمية، فإن نضوج الشعوب الأوروبية لم يأت نتيجة لحادث واحد – كحصول احتكاك أو نشوء مؤسسة – وإنما كان ثمرة للنمو البطىء لمجتمع القرون الوسطى فى الحقل الاقتصادى.

ولقد أقام أبناء أوروبا الغربية – فى الفترة الواقعة بين مطلع القرن الثانى عشر ونهاية القرن الثالث عشر – حضارة كانت إلى حد بعيد متسعة وشاملة. فظهر

اتجاه حديث يتمثل فى نزعة تجريبية هدمت بعض المذاهب الكبيرة التى وُضعت من قبل، وأخذ يتلاشى أثر القول بالضرورات العقلية ؛ وبدأ يصبح للملاحظة دور فى البحث عن تفسير الظواهر الطبيعية [4].

وقد توصل عدد من كبار علماء "باريس" إلى اكتشافات هامة فى دراسة الحركة والأجسام الساقطة، فوضع "جون بوريدان" J. Buridan مفهوم الاستمرارية واعتبر الجاذبية حركة تسارعية متسقة. وحاول "ألبرت أوف ساكسونى" A, of Saxony أن يضع قوانين للأجسام الساقطة ومفهوم الكتل أكثر دقة مما عرف حتى زمانه. واتخذ "نقولا أوف أوريزم" N. of, Oresme ثلاث خطوات حاسمة: فأخترع فكرة الهندسة التحليلية، واكتشف قانون الحركة التسارعية، ودافع بشدة عن حركة دوران الأرض وكانت فرضية واسعة الانتشار. وهكذا استبق العلماء فى عام 1375 عبقرية كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو وديكارت [5].

إن سرعة تقدم العلم لم تكن تعنى سوى انتقال الاهتمام الفكرى إلى مشاكل الحركة الأدبية الإنسانية ووجود ضرورة لتمثل مجموعة جديدة من القيم. لكن الأفكار الرئيسية لعلم الطبيعة الرياضى كان قد توصل إليها تلامذة "أوكام" فى القرن الرابع عشر، أى قبل مائتى عام من التطور التكنولوجى بشكل يكفى لدعم النمو العلمى بثبات واستمرار.

وما أن انتصف القرن الخامس عشر حتى كانت الفلسفة الاسمية قد نضجت فى انجلترا وفرنسا، وقضت على جهود المدرسيين [*] فى سبيل إقامة فلسفة تتفق مع الدين، كما وجهت ضربات قاسمة إلى العلم الطبيعى الأرسطى

(*) لفظ المدرسية أو "الأسكولائية" Scholasticism هى الفلسفة التى نشأت فى مدارس Schola أو تطورت فيها أو تبناها ودافع عنها خريجو المدارس. وقد كانت كلمة "Scholasticism" تطلق على المدرس الذى يقوم بالتدريس وعلى خريج المدرسة فى وقت واحد. ولقد انتشرت هذه المدارس فى عهد "شارلمان" خصوصاً فى فرنسا وألمانيا. وكانت فى معظمها دينية، إما مدارس رهبان ملحقة بالأديرة أو مدارس أسقفية لتعليم رجال الدين الذين لا يريدون الرهبنة.

بجامعة باريس فى القرن السادس عشر، وظاهرت الأمراء فى تمردهم على السلطة البابوية [6]. ونشأت نظرية الحق الإلهى للملوك فى أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية أو العلمانية من رقابة البابا والكهنة .

وقد شهد القرن السادس عشر عصراً ذهبياً زاهراً بلغ أقصى أوجه عندما اكتشفت القارة الأمريكية، وتحول مجرى التجارة من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسى، فارتفع بذلك شأن الأمم المتاخمة لذلك المحيط (أسبانيا وفرنسا وهولندا وانجلترا) وتبوأت فى عالم التجارة والمال تلك المكانة الرفيعة التى كانت تنعم بها إيطاليا من قبل، حينما كانت القارة الأوروبية تتخذ منها ثغراً لتبادل التجارة بينها وبين الشرق .

انتقلت التجارة من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلسى. فانتقلت معها النهضة من فلورنسا وروما وميلانو والبندقية إلى مدريد وباريس وأمستردام ولندن. ثم لم تكد تتحطم القوة البحرية الأسبانية عام 1588 حتى تخلصت انجلترا بالذات من أقوى منافسيها، فاتسع نطاق التجارة الإنجليزية اتساعاً كبيراً، وأخذت مدنها تعج بالصناعة وتزخر بها، وبدأ ملاحوها يطوفون حول الأرض رواداً كاشفين. ولم يكن نهوض انجلترا فى عصرها الذهبى مقصوراً على انتعاش التجارة أو ازدهار الصناعة وارتقاء الملاحة ؛ بل اتسع حتى شمل الآداب والعلوم [7].

حطمت القوى الجديدة الناشئة فى الحياة الاجتماعية الأوروبية، القيود والمفاهيم التى فرضتها السلطة الكنسية فى روما طيلة القرون الوسطى، ولم تكتف بخلق كنائس وطنية جديدة، ولكنها أوجدت أيضاً فرقاً دينية جديدة – أشهرها البروتستانتية فى انجلترا – وبفضل المنافسة التى نشأت بينها تمكنت العلوم والمذاهب العقلية أن تؤسس لنفسها معقلاً حصيناً. وقد أحدثت هذه النزعات ذاتها تغيرات أعمق فى حياة العالم المسيحى (الاقتصادية والسياسية). وهنا أيضاً أوضحت الأحوال الجديدة عن ذاتها بنظريات ومثل عليا جديدة. ونشأ عن هذا الاتجاه مفاهيم سياسية جديدة سيطرت على عالم الفكر والعمل، كما نشأت مثل

عليا فى العلاقات الدولية لم تتغير تغيراً ملحوظاً منذ ذلك الحين [8].

وقد كان انفصال الكنائس الوطنية عن كنيسة روما ثورة سياسية تمثلت فى استبدال المثل العليا لعالم مسيحى موحد ضعيف الارتباط بعضه ببعض، يعمل لخدمة الله والإنسان بإرشاد من سلطة روحية هى "الكنيسة"، بمثل أعلى آخر قوامه دول مستقلة مطلقة السيادة فى أراضيها، مسئولة تجاه ذاتها، تجد ضمانة أفعالها فى القوة [9].

* * * *

ماذا يمثل عصر النهضة ؟

عصر النهضة يمثل حركة فكرية نشأت أولاً فى "إيطاليا" فى الفترة من القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن السادس عشر، ازدهرت خلالها الأنشطة الفكرية والفنية. ويعنى لفظ "النهضة" Renaissance إعادة الولادة Rebirth والتجديد Renewal. وجاء من الفعل الفرنسى Renaitre أى يولد مرة أخرى to be born again ومن اللفظ اللاتينى Renasci [10].

وقد عاصر مفهوم "عصر النهضة" مفهوم الرومانسية أو كما يسميه البعض "الرومانتيكية" Romanticism، فكلاهما له دلالة على النزعة الفردية، وعلى الاهتمام بالأدب والفن بصفة خاصة والفلسفة على وجه العموم. وأصبح هذا المفهوم يشير – فى أنحاء أوروبا – إلى أعمال "أوجست فلهالم" August Wilhelm وشليجل Schigel وغيرهما. ولم تبدأ معارضة مفهومى النزعة الكلاسيكية والنزعة الرومانسية إلا فى القرن الثامن عشر وخاصة لدى الشعراء الألمان مثل: "دنهام Denham" و"درايدن Dryden" و"بوب Pope" [11].

ظهرت النهضة الأوروبية أول الأمر فى إيطاليا – كما سبق القول – منذ أوائل القرن الرابع عشر تقريباً، واستمرت حوالى قرنين من الزمان. وكان من أهم خصائصها التحرر من سلطان الكنيسة ورجال الدين، والتمرد على قواعد الأخلاق المتفق عليها ؛ ورفض الفلسفة المدرسية التى جاء بها العصر الوسيط.

ونلاحظ أن سلطان الكنيسة الكاثوليكية (أو سلطات البابوات) قبل عصر النهضة كان سلطاناً طاغياً. وكان يوجد نوعان من السلطة آنذاك: السلطة المدنية وتتمثل فى الحكومة القائمة، والسلطة الدينية وتتمثل فى البابا وقساوسته والإدارات التابعة لهما. وكان البابا يتدخل حتى فى نشر الكتب الفلسفية والعلمية التى تدرس فى الجامعات أو تلك التى تنتشر خارج الجامعة. فقد كان يسمح مثلاً

بنشر كتب "أوغسطين" و"أنسلم" و"توما الاكوينى"، ويمنع نشر أو تدريس أجزاء من كتب "أفلاطون" أو "أرسطو" إلا ما كان متفقاً مع عقائد الكنيسة [12].

وكان البابا يتدخل فى شئون الملوك ورؤساء الحكومات حتى أن رضى الله كان يقاس بمدى استمرار البابا فى الحكم. ولم يمنع كل هذا من نشر الادعاءات والأكاذيب مثل: أن مفاتيح الجنة فى أيدى رجال الدين يدخلها من يشاء من الناس بإذنهم. ومن أراد الجنة فعليه أن يتقرب إليهم بالمال، ومن يرضى عنه رجل الدين يمنحه ما كان يسمى بـ "صكوك الغفران"، مما شجع عامة الناس على اقتراف الذنوب والمعاصى ثم يذهبون إلى رجال الدين القساوسة للاعتراف لقاء مبلغ من المال يدفعونه.

ومن هنا، دعت حركة النهضة إلى التحرر من سلطة الكنيسة، كما دعت أيضاً إلى التحرر من سلطان الفلسفة المدرسية، مما أدى بالفلاسفة إلى إقامة أنساق فلسفية بديلة ورفض الخضوع لسلطان أفلاطون وأرسطو ورجال الدين .

* * * *

النهضة فـى إيـطالـيا

لقد أصبحت لحركة النهضة فى إيطاليا ركيزة أقوى مما أصبح لها فيما بعد فـى الـبلاد الواقعـة شمـال الألـب. كانـت إيطاليـا عندئـذ منقـسمة – مـن الوجهـة السياسية – إلى عدة مدن كبرى، ففى شمال إيطاليا كانت توجد عدة مدن يؤلف كل منهـا دولـة، وفـى الوسـط كانـت منطقـة حكـم البابـا، وفـى الجنـوب مملكـة "نـابولى" و"صقلية". وكانت أقوى مدن الشمال هى "ميلانـو" و"البندقيـة" و"فلورنـسا". وكانـت هناك نزاعات دائمة بين الدويلات، فضلاً عن صراعات بين الفئات المتنافسة داخل كل مدينـة. وقـد كـان النبلاء وحكـام المدن يحـارب بعضهم بعضاً بمساعدة مرتزقـة محترفـين كـان هـدفهم هـو المحافظـة على حيـاتهم، وهكـذا أصبحـت إيطاليـا ميـداناً للمعـارك بـين ملـك فرنـسا والإمبراطـور، وبالتـالى ظلـت الـبلاد منقـسمة وخاضـعة للسيطرة الأجنبيـة، وظلـت نـابولى وصقلية أسبانية، على حين أن الأراضى الواقعة تحت سيطرة البابا ظلت تتمتع باستقلال يحترمه الآخرون [13].

وبقيت "البندقية" خارج دائرة السياسة الإيطالية، وخاصة فى القرون الأولى من عظمتها ؛ فلم يقهرها البرابرة واعتبرت نفسها – فى البداية – خاضعة للأباطرة الشرقيين. وكانوا قد اكتسبوا قوة وثراء عن طريق الحروب الصليبية، وبعد أن هزموا منافسيهم فى "جنوا" سيطروا على التجارة فى كافة أرجاء البحر المتوسط، وعندما استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية عام 1453، بدأت البندقية تتدهور. وقد كان من الممكن للبندقية أن تخرج سليمة من هذه المحنة، لولا كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند واكتشاف العالم الجديد [14].

وكـان لـ "فلورنـسا" شـأن كـبير فـى مجـال الفكـر والأدب، حتـى أن بعـض المـؤرخين يـشبهها بأثينـا فـى عـصر ازدهارهـا. اجتمـع فـى "فلورنـسا" حـب المـال والجمال، والانفتاح على العالم، والتطلع إلى المعرفة ؛ ونشأ فيها مؤرخون تربوا على

حب التاريخ الرومانى والإغريقى، وعركوا الحياة فى المجالس المدنية وفى بلاطات الأمراء الأجانب.

وأحرزت "فلورنسا" تقدماً كبيراً فى مجالات مختلفة منها: الأدب والعلم والصناعة والتجارة، ومنها خرج علم الاقتصاد السياسى. ويعتبر "جيتشاردينى" أهم مؤرخ لفلورنسا، وقدم فى سنواته الأخيرة كتابيه: "حوار فى نظام فلورنسا" و"الحكاية الفلورنسية"، وهما من أفضل ما كتب فى هذا المجال [15].

أعلام عصر النهضة

ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci

[1519 – 1452]

لم تصل إلينا غير معلومات قليلة عن "دافنشى" الذى تنوعت اهتماماته، فجمع بين العلم والفن، وذاعت شهرته كأكبر فنان (رسام ونحات) فى هذا العصر. والحق أنه قد أحاط نفسه بسياج من السرية والكتمان، ولم ينشر فى حياته شيئاً من مؤلفاته وبحوثه – ولذلك ظل فى عزلة تامة – ولم تصل إليه جهود الباحثين والدارسين .

ولكن من الممكن أن نقول عنه، أنه أول من فكر فى تطبيق الرياضة على الطبيعة، وأول من أكد أهمية التجربة ودورها فى العلم الحديث. فالتجربة – عنده– يجب أن تكون هى المصدر الأول للعلوم، وأصل اليقين. وكل علم لا يبدأ من التجربة ولا ينتهى بها، يكون فى نظره علماً زائفاً [16]. وليست التجربة – عند دافنشى – مجرد الإدراك الحسى، بل البحث عن العلاقات الضرورية بين الأشياء، ووضع هذه العلاقات فى صيغ رياضية تخلع على نتائج التجربة يقيناً كاملاً وتسمح باستنتاج الظواهر المستقبلة من الظواهر الراهنة [17].

ولقد أضاف رؤيته الفنية والجمالية إلى رؤيته العلمية للطبيعة، فالعالم يكشف عن هيكل الطبيعة، بينما الفنان يكشف عن لحمها وسداها. ولذلك كان

الرسم فى نظره أروع لغة الفكر والروح. أن الفن عند "دافنشى" يحتل مكانة الميتافيزيقا التقليدية بجانب العلم. فالعلم هو بداية معرفتنا بالطبيعة، والفن هو النهاية، أما الميتافيزيقا فليست بالضرورة العلم الذى يفسر لنا مبادئ الفيزياء، ذلك لأن العلم الطبيعى مستقل بذاته عن كل معرفة أخرى ؛ ولكنه لم يصل إلى درجة العلمية المتطرفة التى تنبذ كل ضرب من المعرفة الإنسانية [18].

نيقولا ماكيافللى Nicola Machiavelli

[1527 – 1469]

ولد ماكيافللى عام 1469، فى الفترة التى يسميها مؤرخ من أكبر المؤرخين الإنجليز "ج – ا سيموندز" J. A. Symonds "عصر الطغاة" وهو حفيد أسرة عريقة يرجع تاريخها إلى القرن التاسع، عُرفت بمقتها الشديد لحكم آل مديتشى ؛ فلقد لقى أحد أفرادها حتفه فى ظلمات السجن لكراهيته الشديدة لحكم هذه الأسرة، التى لم يكن يؤيدها من أسرة ماكيافللى عموماً فرد بعينه [19].

إن المعلومات عن سنواته الأولى قليلة وضئيلة، ولكن أباه قد رباه منذ طفولته تربية إنسانية، تقوم على الإيمان بقوى الإنسان، أما اشتغاله بالسياسة فقد بدأها عام 1494، عندما طردت أسرة "مديتشى" من فلورنسا فى هذا الوقت خضعت المدينة لتأثير سافونا رولا (1452 – 1498) Savonarola المصلح الدومينكانى الذى تصدى للرذيلة والفساد المنتشرين فى عصره. وقد دفعه حماسه الشديد إلى التصادم مع إسكندر السادس، البابا الذى ينتمى إلى أسرة يورجيا، فأعدم حرقاً فى عام 1498، وكان من الضرورى أن تثير هذه الأحداث أفكاراً عن طبيعة السلطة والنجاح السياسى. وخلال الوقت الذى ظلت فيه أسرة "يورجيا" منفية، كانت فلورنسا جمهورية، وظل " ماكيافللى" يحتل منصباً عاماً حتى عودة الأسرة إلى الحكم فى عام 1512. ولما كان قد عارض هذه الأسرة طوال الفترة السابقة، فقد أصبح بعد عودتها غير مرغوب فيه. فأرغم على اعتزال الحياة العامة، وكرس حياته

منذ ذلك الحين للكتابة فى الفلسفة السياسية وما يتصل بها من موضوعات. ولم تنجح المحاولة التى بذلها لاستمالة آل مديتشى مرة أخرى عن طريق إهداء كتابه المشهور "الأمير" إلى "لورنتسو" الثانى فى عام 1513 [20].

توفى "ماكيافللى" عام (1527) وهى السنة التى قام فيها مرتزقة الإمبراطور شارل الخامس باجتياح روما ونهبها. وقد كانت آخر كلماته "اكتشفت نظاماً جديداً لحماية الوطن" هذه هى حياة وطنى عاش يدعو إلى "سياسة الواقع" وكان نفسه فريسة لسراب الأمل، حاول جاهداً أن ينفذ إلى صميم العمل السياسى، ويتفرغ له من أجل الوطن.

عنى "ماكيافللى" بالسياسة عملياً ونظرياً، وكانت نظراته السياسية تتركز حول كيفية الحصول على السلطة (الحكم) والمحافظة عليها. ولما كان هذا هو الهدف، فلا محل للاعتبارات الأخلاقية. إن الغرض هو النجاح السياسى، ولهذا انصب بحثه على بيان أنواع الأعمال التى من شأنها أن تؤدى إلى النجاح السياسى فى مختلف المواقف. وقد هيأ له هذا النظر أحوال مدينة "فيرنتسة" نفسها. فهذه المدينة – فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر – كانت مدينة المال والتجارة، وبالتالى كان الهدف هو تقدير المكسب والخسارة، فلا غرو أن جاء تصور "ماكيافللى" للسياسة على أنها صفقة مالية تجارية المهم فيها هو الربح، لا مراعاة قواعد الأخلاق [21].

والمنهج الذى اتبعه "ماكيافللى" فى كتابيه الرئيسيين فى السياسة "الأمير" و"المقالات" [وقد كتبهما بين عام 1513 وعام 1521 ونشرهما عام 1532] هو إيراد عدة شواهد مأخوذة من التاريخ ومن أحداث عصره لتأييد قضية معينة تتناول شروط النجاح السياسى. وفى كتبه جميعاً يقارن بين الأخلاق القديمة والأخلاق المسيحية، فيرى أن القدماء كانوا يحبون الجاه والصحة والقوة، وكانت دياناتهم تخلع هيبة إلهية على القواد والأبطال والمشرعين، أما المسيحية فإنها على العكس ترجئ غاية الإنسان إلى الآخرة، وتحثه على الإعراض عن الجاه الدنيوى، وتمجد التواضع والنزاهة ؛ وتضع الحياة النظرية الباطنة فوق الحياة العملية الظاهرة ؛

فأوهنت بذلك عزيمة الإنسان، وأسلمت الدنيا لأهل الجرأة والعنف. فهى نافعة وضرورية للعامة فقط المطلوب منهم الطاعة، ويجب على الحاكم أن يحميها ويؤيدها حتى ولو اعتقد ببطلانها [22].

ولا تنطوى التعاليم التى يقدمها كتاب "الأمير" على أية محاولة لتقديم نصيحة خالصة إلى الحاكم تبين له كيف يكون حاكماً فاضلاً، بل أن الكتاب يعترف بأن هناك ممارسات شريرة تؤدى إلى مفهوم السلطة السياسية، وكان هذا هو السبب فى اكتساب لفظ "الماكيافللى" [*] معناه الشرير المذموم. لكن ينبغى القول – إنصافاً لـ "ماكيافللى" – أنه لم يكن يدعو إلى الشر من حيث هو مبدأ ؛ فقد كان ميدان بحثه يقع خارج نطاق الخير والشر، شأنه فى ذلك شأن أبحاث عالم الفيزياء النووية. وكانت الحجة التى يعرضها هى أنك إذا أردت اكتساب السلطة فعليك أن تكون قاسياً بلا رحمة، أما مسألة ما إذا كان هذا خيراً أم شراً فهى مسألة أخرى تماماً – لا شأن لـ "ماكيافللى" بها [23].

ولهذا فإن من واجب الأمير – كما يقول "ماكيافللى" – أن يفرق فى قوة وحزم بين المبادئ الأخلاقية ومطالب الحكم، أى بين ضميره الخاص والصالح العام، وأن يكون مستعداً لأن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شراً فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض، ويجب عليه أن يزدرى أساليب التردد والضعف التى لا تبلغ الإنسان الغرض كاملاً [24].

فالغاية العليا من السياسة – فى نظره – هى المصلحة العامة والأمن والرفاهية للجماعة، وليست تلك الغايات الأخلاقية التى تصورها المفكرون السياسيون السابقون. وللحكم على السياسة ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار النتائج الاجتماعية والسياسية، بغض النظر عن النتائج الأخلاقية، الأمر – عنده – هو أنه لا

(*) أصبحت طريقة "ماكيافللى" مثالاً لوصف طغاة العالم بـ "الماكيافللية" أمثال "هتلر" و"موسولينى" و"ستالين" وغيرهم الذين يجمعهم الفصل بين عملهم السياسى وأخلاقياته؛ فعملهم يوصف بـ "اللاأخلاقية" مادام يحقق لهم النجاح فى حكمهم بالعنف والغش والظلم والكذب والفساد بكل أشكاله .

محل للاحتكام إلى الأخلاق فى تقويم الأفعال السياسية، بل العبرة فيها بالنجاح وحده، أى تحقيق المنفعة العامة والأمن والرفاهية للمجتمع بوصفه كلاً [25].

والواقع، أن ماكيافللى لم يكن يعترف بأى قانون أخلاقى فى مسائل السياسة، لأن السياسة عنده لعبة يسمح فيها بكل أنواع الحيل، وتتغير قواعد اللعبة على أيدى اللاعبين أنفسهم حتى توافق أهواءهم . لكن ليس معنى هذا أن ماكيافللى يدعو الفرد إلى التحلل من القيم والمبادئ الأخلاقية، أو إلى الخروج على مبادئ الفضيلة، أو شق عصا الطاعة على الضمير، بل على العكس لقد كان مهتمًا بغرس المبادئ الأخلاقية عند الفرد بحيث لا كذب ولا خداع ولا يكون لديه رياء .... إلخ إن كل ما كان يدعو إليه هذا الفيلسوف هو فصل الأخلاق التى هى مبادئ لسلوك الفرد عن السياسة التى هى البحث عن صالح الجماعة، والمحافظة على الدولة وحمايتها وتدعيم وجودها وبقائها [26].

❊ ❊ ❊ ❊

النهضة خـارج إيطاليا

ما أن بدأ القرن الخامس عشر الميلادى حتى شاعت الحركة الإيطالية فى أنحاء أوروبا، فتأثرت فرنسا وألمانيا وانجلترا بها، إلا أنها لم تقتف أثر إيطاليا تماماً فى كل خصائص النهضة، لقد اشتركت هذه الدول مع إيطاليا فى: الثورة على سلطة البابا، وعلى الفلسفة المدرسية وعلى المنطق الصورى، ولكنها اختلفت عنها فى أنها لم تكن تشجع على الإلحاد مثلها ؛ وإنما كانت هذه الدول تؤمن بالعقائد المسيحية وتعن بدراسة الكتاب المقدس وتفهمه، كما كانت تتمسك بقواعد الأخلاق الدينية [27].

وتحدث أيبوليت أدولف تين Hippolyte Adolphe Taine (1828 - 1893) – المؤرخ والناقد والفيلسوف الفرنسى الذى كتب عن تاريخ عصر النهضة فى كتابه "تاريخ الأدب الإنجليزى – عن انتقال النهضة إلى انجلترا، حيث بدأت الاكتشافات وتحركت الصناعة والعلوم نحو طريق التجديد، كذلك بدأت العلوم التجريبية تنمو واتجه الإصلاح إلى الدين. ولم يكتف الإنسان عند فحص الأشياء الفردية – بحسب ترتيبها الاسكولائى – بل اتجه نحو النظرة الشاملة [28].

وفى نهاية القرن الخامس عشر تحرك المجتمع الأوروبى وراجت الصناعة فى انجلترا، وجنح ملوك أوروبا نحو السلام وبدأ الإيطاليون الاهتمام بالأفكار القديمة متأثرين بكتابات "بترارك"(*) و"بوكاتشيو" (**).

(*) بترارك (1304 – 1374) شاعر غنائى وعالم إيطالى من القرن الرابع عشر، وكان له أثر عظيم على الحركة الإنسانية وعلى قيم عصر النهضة.

(**) بوكاتشيو (1313 – 1375) كاتب وروائى وشاعر إيطالى، اشتهر بمجموعته القصصية المسماة "ديكامبرون" Decameron وهى من المؤلفات العالمية المشهورة. ويعرف بوكاتشيو بأبى النثر الإيطالى الكلاسيكى.

"توماس مور" Thomas More
[1535 – 1478]

ولد "مور" عام 1478 وتلقى تعليمه فى مدرسة القديس "أنطونيوس" فى لندن، ثم التحق وصيفاً بمنزل الكاردينال "جون مورتون" John Morton الذى كان يدعو إلى إحياء دراسة اللغة والآداب اليونانية والجيد من الأعمال اللاتينية. وفى عام 1497 قابل "إرازموس" (*) عندما زار هذا الأخير انجلترا لأول مرة. وأدى هذا الاتصال المتجدد بالمعرفة الجديدة إلى تقوية اهتمام "مور" بدراساته اليونانية. وبعد فترة قصيرة مر بمرحلة من الزهد .

لكنه تخلى عن أفكار الرهبنة، وذلك لأسباب قد يكون من بينها نصائح صديقه "إرازموس" بالابتعاد عنها. وفى عام 1504 أصبح عضواً فى البرلمان، حيث برز بسبب وقوفه فى وجه المطالب المالية لـ "هنرى السابع"، وعندما مات الملك عام 1509 عاد "مور" إلى التفرغ لمهنته، ولكن سرعان ما استدعاه "هنرى الثامن" لكى يمارس الوظائف العامة مرة أخرى، وبمضى الوقت ارتقى إلى أرفع المناصب؛ فأصبح كبير المستشارين. ولكن بقاء "مور" فى السلطة لم يدم طويلاً، فقد كان معارضاً لطلاق الملك من "كاترين أراجون" Catherine Aragon، واستقال من منصبه عام 1532، وقد أثار غضب الملك عليه عندما صدر قانون السيادة عام 1534 وجعل من الملك رئيساً للكنيسة الجديدة، رفض "مور" أن يقسم اليمين، فأرسل إلى لندن وحوكم فى عام 1535 حيث أدين بتهمة الخيانة بسبب قوله: "إن البرلمان لا يملك أن يجعل من الملك رئيساً للكنيسة" وحكم عليه بالإعدام بسبب هذا الرأى. وهكذا لم يكن التسامح فى الأمور السياسية سمة من سمات العصر

(*) "إرازموس" Erasmus (1466 – 1536) أعظم شخصيات حركة النهضة فى الشمال، حيث كان لديه اهتمام أصيل بالدين، هاجم المستويات العليا فى الكنيسة، وكان يؤمن بأن الإنسان يتصل بالله اتصالاً مباشراً وأن اللاهوت لا داعى له .

(29).

كتب "مور" عدة أعمال منها: "نشيد النهضة" و"الأشياء الأربعة الأخيرة" و"تأملات" و"صلوات". لكن أهم كتاباته كتاب "اليوتوبيا" Utopia (*) وقد سبقه فلاسفة آخرين استهواهم نفس هذا العمل، فكتب أفلاطون "الجمهورية"، وكتب أرسطو "السياسة"، وكتب أوغسطين "مدينة الله"، وكتب الفارابى "آراء أهل المدينة الفاضلة". أما ما يميز "يوتوبيا" "مور" عن تلك الأعمال السابقة، هو الشكل الأدبى الروائى الذى قدم به عالمه المثالى من جهة، وارتباطهما بعالم الواقع ومشاكله ارتباطاً وثيقاً من جهة أخرى.

أعطى "مور" اسم الـ "يوتوبيا" لجزيرة نائية فى نصف الكرة الجنوبى، وقدمها فى شكل رواية لبحار أغرقت سفينته، فعاش خمس سنوات فى مجتمع الجزيرة هذا – وكان "مور" يريد أن يقول لنا ليس فى أوروبا مجتمع يصلح لأن يكون مجتمعاً فاضلاً وأن البلاد النائية أكثر صلاحية للمجتمع المثالى.

تصور "مور" سكان تلك الجزيرة يعيشون على مشاعية التملك، فحينما تكون هناك ملكية خاصة، لا يمكن أن يقوم احترام للصالح المشترك. وفضلاً عن ذلك فإن الناس إذا امتلكوا الأشياء انقسموا على أنفسهم بقدر ما تختلف ثرواتهم. وتسلم "اليوتوبيا" مقدماً بحقيقة أساسية، هى أن الناس ينبغى أن يكونوا جميعاً متساويين. ويترتب على ذلك أن الملكية الخاصة مفسدة، ومن ثم لا ينبغى السماح بها.

ويصف "مور" تنظيم الدولة المثلى بالتفصيل، فهناك عاصمة وثلاث وخمسون مدينة أخرى، مبنية كلها على نفس النمط، وبها مساكن متماثلة يستطيع أى فرد أن يدخل أياً منها. ذلك لأن عدم وجود ملكية خاصة يجعل السرقة أمراً لا معنى له. وتسير حياة العمل عند جميع المواطنين على نفس الوتيرة، فهم جميعاً يشتغلون ست

(*) صاغ "مور" الاسم من كلمتين يونانيتين هما ου و τοπος ومعناهما لا مكان، ولكنه أسقط حرف o وكتب الكلمة باللاتينية utopia وهى نفس اللفظ المستخدم فى الإنجليزية.

ساعات فى اليوم، ويعودون فى الثامنة مساء ويستيقظون مرة أخرى فى الرابعة صباحاً. ويركز أولئك الذين يملكون الاستعداد للمعرفة على جهودهم العقلية، ولا يقومون بأى عمل آخر. ومن هذه الفئة تختار الهيئة الحاكمة. أما عن نظام الحكم فهو نوع من الديمقراطية النيابية عن طريق اقتراع غير مباشر. وينتخب رئيس الدولة مدى الحياة، شريطة أن يحسن التصرف ؛ فإن لم يفعل كان من الممكن عزله، أما بالنسبة إلى أهل البلاد أنفسهم فإنهم لا يحتاجون إلى المال، وحياتهم متحررة من التعصب والتقشف، غير أن ثمة قيداً واحداً. فالملحدون – وإن كان يسمح لهم باعتناق آرائهم دون تدخل – لا يتمتعون بمركز المواطنين، ولا يمكن أن يدخلوا الحكومة [30].

وأهم ما يؤخذ على يوتوبيا "مور" وجود العبيد الذين هم أسرى الحرب فى المعارك، والذين يحكم عليهم بالخروج على تعاليم الدين وقانون الجزيرة، ويوثق العبيد بالأغلال ويحكم عليهم بالأشغال الشاقة، ولكنهم يصبحون أحراراً إن اظهروا توبة وصلاحاً. غير أن الشىء الذى يهمنا – أكثر من غيره – فى معالجة "مور" لهذا الموضوع هو تلك النظرة التحررية الجديدة إلى مسألة التسامح الدينى ذلك لأن حركة الإصلاح الدينى كانت قد هزت المجتمع المسيحى فى أوروبا وزعزعت موقفه المستسلم إزاء السلطة، وقد أدت هذه الحركة إلى انقسام دينى دائم فى أوروبا، كان من الضرورى أن تسود فكرة التسامح بمضى الوقت، والبديل هو الإبادة والقمع .

* * * *

خلاصة النزعة الإنسانية

بدأت مظاهر عصر النهضة فى الظهور والسيادة بعد أن أصاب – الاتجاهات الفلسفية التى ظهرت فى العصور الوسطى – الاضمحلال والتدهور، فسادت النهضة فى إيطاليا أولاً ثم تبعتها الدول الأوروبية الأخرى. وبدأت الثورات تنشب ضد الدين المسيحى فى أوروبا من جراء مواقف رجال الكنيسة المنافية للدين والأخلاق بصفة عامة، فبدأت تظهر– على السطح – مظاهر الإصلاح الدينى على أيدى رجال أرادوا تنقية الدين مما لحقه من شوائب التزييف والحذف والإضافة وفقاً لأهواء من يقومون بشئون الكنيسة، خاصة مارتن لوثر وجون كالفن، مما أدى إلى ظهور عقيدة جديدة هى "البروتستانتية" [31].

وبدأت المناهج العلمية تسود خاصة وأنها السبيل إلى التقدم المادى الذى كانت أوروبا فى حاجة إليه، وشجعهم على الاستمرار فى هذا السبيل ما وجدوه بين أيديهم من اختراعات مثل: البوصلة والبارود والطباعة والعدسات. . وغيرها من مظاهر التقدم العلمى التى لم تعد تستند إلى الأفكار القديمة، بل أصبحت تنهض على أسس أفكار جديدة يدعمها منهج علمى جديد.

ولكن الإنسان وجد نفسه قد أسرف فى البحث عما يدور حوله فى العالم، وأسرف فى الاهتمام بما قد يحدث له فى العالم الآخر. وأدرك بأن ما لديه من قوى كامنة كافية لتحقيق سعادته، وأخذ يبحث عن الوسائل للتعبير عن ذاته بقوة ووضوح، ولذلك عرفت "النزعة الإنسانية" [32] Humanism.

ولقد امتدت فترة "النزعة الإنسانية" منذ عام 1453 وحتى عام 1600 وهو العام الذى أحرق فيه "جيوردانو برونو".

جيوردانو برونو Giordano Bruno

[1600 – 1548]

عكس "برونو"، فى خضم حياته، تلك الثورة العقلية التى اتسم بها عصر النهضة فى أواخره، كما عكس الانقلابات الدينية والثورة العلمية التى كانت فى سبيلها إلى الظهور. بدأ حياته راهباً دومينيكياً ولكنه خلع ثوب الرهبنة وخرج على الكنيسة الكاثوليكية. وأخذ ينتقل فى بلاد أوروبا، فذهب إلى "جنيف" ثم "تولوز" حيث أمضى عامين وحصل على الدكتوراه فى اللاهوت وفى نهاية عام 1581 انتقل إلى باريس حيث أصبح تحت رعاية الملك "هنرى الثالث" وعين مدرساً فى جامعة باريس، فألقى محاضرات فى صفات الألوهية، ثم غادر باريس إلى لندن وأكسفورد ؛ فألقى محاضرات فى "خلود النفس". ونشر بعد ذلك كتاباً فى "العلة والمبدأ الواحد" وآخر فى "العالم اللامتناهى" وفى عام 1591 أصدر كتاباً بعنوان "المونـاد والعدد والشكل" [33].

اعتقلته محاكم التفتيش فى البندقية عام 1592 بسبب آراءه الدينية، ومنها أرسل إلى روما حيث اتهم بالتهكم على فكرة تجسد المسيح وعلى القربان المقدس، فصدر الحكم بإعدامه حرقاً فى 17 فبراير عام 1600.

لم يكن خروج "برونو" على الإيمان المسيحى مجرد حادثة عابرة، بل كان عاملاً حاسماً فى تشكيل فلسفته. فهو لم يسع إلى إعادة صياغة معنى الإيمان العالى على الطبيعة، أو على إصلاح نتائجه الأخلاقية ؛ ولكنه يرفض ببساطة أى تسليم بالوحى على أنه حقيقة (سواء فى صورته الكاثوليكية أو البروتستانتية) كما يرفض أن ينظر إلى الأخلاق المسيحية بوصفها سبيلاً إلى السعادة الإنسانية، ولقد كان قادراً – خلال حياته الفكرية – على الانتقال من طائفة دينية إلى طائفة دينية أخرى، لأنه لم يكن ينظر إلى تلك الطوائف جميعاً بوصفها حاملة للحقيقة عن اللّه، ولكن بوصفها مقومات فى المجتمع المدنى – لم يكن "برونو" يؤمن بالدعوة القائلة بحقيقتين إحداهما للاهوت والأخرى للفلسفة، بل كان يدعو – على النقيض من

ذلك – إلى نظرية صارمة ذات حقيقة واحدة تحتوى فيها الفلسفة وحدها على معرفة واضحة صريحة باللّه والإنسان والطبيعة، وكان لا يرى اللاهوت إلا أداة عملية للمحافظة على المسيحية المستقرة ولتنظيم السلوك العام، ولا يراه علماً نظرياً وعملياً قائماً على الحقائق الموحى بها [34].

والواقع أن معارضة "برونو" لأية حقيقة صادرة عن الوحى أو لأى تأثير للإيمان لا يمليها أساساً استقلال الفلسفة، بل مذهبه فى "واحدية الجوهر" Monism Substance. فاللّه هو المبدأ والعلة ومن حيث إنه هو "الطبيعة نفسها"، أو من حيث إنه يتجلى لنا فى نطاق هذه الطبيعة وفى ثناياها. اللّه والطبيعة الجوهرية شىء واحد. وقد عبر فى قصيدته عن "الحب" عن لا تناهى الطبيعة وتطابقها مع اللّه [35]، بقوله :

" العلة والمبدأ والواحد الأبدى

الذى منه يخرج الوجود والحياة والحركة .

والذى يمتد بنفسه طولاً وعرضاً وعمقاً .

إلى كل من فى السموات، أو على الأرض، أو فى الجحيم .

بالحس والذهن والعقل، أدرك .

تلك القوة وتلك السعة وذلك العدد .....

*** * * ***

مراجع الفصل الأول من الباب الأول

(1) برتراند رسل، حكمة الغرب، ترجمة د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت عدد (72) الجزء الثانى، 1983، ص17.

(2) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ترجمة د. جورج طعمة، دار الثقافة – بيروت، الجزء الأول، 1965، ص56.

(3) المرجع السابق، ص ص56 – 57.

انظر أيضاً :

Brain, P. Copenhaver and Charles B, Schmitt Renaissance Philosophy, Oxford, University Press, 1992, pp. 1 – 2.

(4) Paul Oskar Kristeller, Medieval Aspects of Renaissance Learning, edited and translated by Edward P. Mahoney, Duke University Press, 1974, pp. 4 – 5.

(5) جون هرمان راندال، المرجع سالف الذكر، ص 337.

أنظر أيضًا :

Frederick Copleston , A History of philosophy, vol 3, Late medieval and Renaissance philosophy, contimuum, London, New York, 2003.

(6) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم بيروت – لبنان، ص5.

(7) انظر فى ذلك: د. قيس هادى أحمد، نظرية العلم عند فرانسيس بيكن، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص19.

(8) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، ص 281.

(9) المرجع السابق، ص ص281 – 282.

(10) Edward Craig, Routledge Encyclopedia of Philosophy, London and New York, 1998, p. 264.

أيضـــاً : James Collins, A History of Modern European Philosophy, Lanham, New York, London. 1986, p. 19.

(11) د. إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة (من ديكارت إلى هيوم)، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2000، ص 45.

(12) المرجع السابق، ص46.

(13) برتراند رسل، حكمة الغرب، الجزء الثانى، ص ص 25 – 26.

(14) المرجع السابق، ص26.

(15) د. إبراهيم مصطفى إبراهيم، المرجع السابق، ص ص 47 – 48.

(16) د. نـازلى إسماعيـل حسين، الفلسفة الحديثـة، المكتبـة القوميـة، 1983، ص ص61 – 62.

(17) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 17.

(18) د. نازلى إسماعيل حسين، المرجع السابق، ص 63.

(19) نيقـولا ماكيـافللى، دراسـة تحليليـة محورهـا كتـاب الأمير، ترجمـة وتحليـل وتعليـق محمد مختار الزقزوقى، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 14.

(20) برتراند رسل، حكمة الغرب، ص29.

انظر أيضاً: James Collins, op. cit., p. 27.

(21) د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الجزء الثانى، 1984، ص ص 463 – 464.

(22) يوسف كرم، المرجع السابق، ص25.

(23) برتراند رسل، المرجع السابق، ص30.

(24) نقلاً عن: ول ديورانت، قصة الحضارة (النهضة / الإصلاح الدينى) ترجمة د. محمد بدران ود.عبد الحميد يونس، المجلد الحادى عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، ص67.

(25) أنظر فى ذلك :

Emesto Landi , Machiavellin : Western Political Philosopers edited

by Maurice cranstan , Background Book . London 1964.

(26) د. إمام عبدالفتاح ، الأخلاق والسياسة (دراسة فى فلسفة الحكم) ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2001 ، ص 262 .

(27) د. إبراهيم مصطفى إبراهيم، المرجع السابق، ص50.

(28) Anthony Kenny, Renaissance Thinkers, Oxford, New York, 1993, p. 209.

(29) برتراند رسل، حكمة الغرب، ص37.

(30) المرجع السابق، ص ص 38 – 39.

(31) د. إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة (من ديكارت إلى هيوم)، ص ص56 – 57

انظر أيضاً: د. كريم متى، الفلسفة الحديثة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازى 1988، ص13.

(32) Brian P. Copenhaver and Charles B. Schmitt, Renaissance Philosophy, p. 24.

(33) د. نازلى إسماعيل حسين، الفلسفة الحديثة، ص 50 .

انظر أيضاً: إميل برهييه، تاريخ الفلسفة (العصر الوسيط والنهضة)، ترجمة جورج طرابيشى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1988، ص309 .

(34) جيمس كولينز، الله فى الفلسفة الحديثة، ترجمة د. فؤاد كامل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص43 .

أنظر أيضا :

Concise Routledge Encyclopedia of Philosophy, London and New York , 2000 , p 104 .

(35) John Charles Nelson , Renaissance Theory of Love , The Context of G, Bruno's Eroici Furori , Columbia University Press , New York , 1958, P 11.

* * * *